

# الاصابة



ظاهرة التكفير .. الاسباب والعلاج والآثار



مؤتمر ظاهرة التكفير .. الاسباب .. الآثار .. العلاج

المحور ٣ - البحث ٢٧

الاسباب النفسية لانتشار ظاهرة التكفير  
أخطاء التفكير ومشكلاته  
من منظور علم النفس العيادي

نور كيخيا

## المقدمة:

بعد سنين طويلة من البحث العلمي الذي تخطى جميع المدارس التي حاولت حصر السلوك الإنساني بمفهومه العام في قمم نظري محدود، توصل علماء النفس المعرفيون إلى أن النشاط الفكري الداخلي للإنسان، سواء شعر به أم لم يشعر به، هو الذي يوجه سلوكه وتصرفاته الخارجية، وهذا بالطبع يؤكد صدق ما قرره الاسلام من أن التفكير هو العمود الفقري للإيمان الذي ينبثق عنه كل عمل خير، كما تشير إلى ذلك آيات عديدة في القرآن الكريم مثل قوله - تعالى -: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ﴾ (الروم: ٨)، وقوله: ﴿..إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ (فاطر: ٢٨)، وقد استعمل القرآن الكريم دوماً تعبير ﴿الذين لا يعلمون﴾<sup>(١)</sup> بدلالة سلبية، وغالباً في سياق يطابق مفهوم الضلال، وفي تسمية "الجاهلية" ما يشير إلى القيمة التي يحتلها العقل الإنساني في الإيمان، فهذه التسمية تتعلق بمفهوم العلم، وهو عمل ذهني إدراكي، والإسلام هو الدين الوحيد الذي يوجب التوافق بين العقل الإنساني والتنزيل الإلهي، ودرء التناقض بينهما، على أساس أن خالق العقل البشري ومنزل الكتاب هو واحد (سبحانه وتعالى).

يمر كل عمل يقوم به الإنسان بالضرورة عبر نشاط معرفي/ ذهني داخلي، سواء كان خاطرة أو تخيلاً أو إدراكاً حسيّاً أو انفعالاً، وكلما زادت قوة هذا النشاط المعرفي أصبح دافعاً للسلوك، وإذا قام الفرد بهذا السلوك المدفوع

(١) انظر: سورة البقرة، الآيات ١١٣، ١١٨. وسورة يونس، الآية ٨٩. وسورة الروم، الآية ٥٩، وسورة الجاثية، الآية ١٨.

وكرره فإن الافكار الداخلية حينئذ تكتسب القدرة على الإتيان بهذا الأعمال بطريقة تلقائية حتى تصبح عادة متأصلة ، وبالتالي فالطريق الوحيد لتغيير هذا السلوكيات والعادات ينطلق أولاً من تغيير الأفكار والعادات الشعورية التي تأتي بها ، فما يفكر به الإنسان ويشعر به وينفعل له ويدركه على المستوى الشعوري ، هو الذي يشكل تصوراتة للحياة ويصوغ عقائده وقيمه ويوجه من ثم تصرفاته الخارجية ، السوية منها والشاذة<sup>(١)</sup> ، من هنا تأتي أهمية دراسة العوامل المؤثرة في التفكير، وانطلاقاً من هذا فقد تم التركيز في هذا البحث على دراسة الأسباب النفسية المؤثرة في تفشي ظاهرة التكفير.

أود أن أوضح - بداية - أن هذا البحث ليس بحثاً نفسياً متخصصاً وإنما هو بحث موجه لقارئ غير متخصص وليس على دراية جيدة بمفاهيم ومصطلحات علم النفس ويتناول ظاهرة التكفير بشكل نظري ولكن من منظور علم النفس، وبالتالي لا يخضع هذا البحث لمعايير البحوث النفسية التخصصية وبشكل خاص البحوث الميدانية منها ، وهو يقع في مكان وسيط بين العلوم الاجتماعية وعلم النفس حيث تُقارب الظواهر الاجتماعية من منظور نفسي وبشكل نظري، ومن هنا يتعامل مع ظاهرة التكفير بوصفها ظاهرة اجتماعية تؤدي العوامل النفسية الفردية دوراً بارزاً فيها. وقد بني البحث بهذا الشكل لتسهيل وصول فكرة البحث إلى قرائه المفترضين بشكل مثمر. وبالرغم من أن البحث يتناول ظاهرة متصلة على نحو جوهري بالمعرفة الشرعية الدينية، إلا أنه ليس دراسة شرعية، ولا يعتمد آليات أو يستند إلى مناهج البحث المعروفة فيها، وإنما يرجع إليها فقط عند إيراد الأمثلة، وما ورد في بعض الأحيان من استدلال بالنصوص القرآنية الكريمة والنبوية الشريفة

(١) انظر: مالك البدرى، التفكير من المشاهدة إلى الشهود، القاهرة، المعهد العالمي للفكر الإسلامي،

فعلى سبيل الاستشهاد لتقريب المفاهيم النفسية من النسق الفكري الإسلامي والالتزام به، وليس على سبيل الاستنباط والاجتهاد الفقهي أو التفسيري. هذا، وتعتمد هذه الدراسة في تناولها للأسباب النفسية لظاهرة التكفير على منظور علم النفس العيادي، وما يعرف باتجاه "العلاج المعرفي السلوكي" (CBT)، الذي يركز بشكل أساسي على الاعتقادات والأفكار الشخصية كمسبب رئيس للسلوكيات من أقوال وأفعال على اختلاف درجة سوائها النفسي أكثر من اعتمادها على الوقائع والأحداث الخارجية بحد ذاتها كمحفز لهذه السلوكيات.

وتحاول هذه الورقة إلقاء الضوء على جزء من العمليات النفسية – وبشكل خاص التفكير –، التي تقف وراء سلوك التكفير بوصفه نتاجاً لسلسلة من العمليات الفكرية، وذلك من خلال مناقشة بعض أخطاء التفكير المحتملة التي قد يقع فيها الشخص في إطلاقه لحكم التكفير، كخطوة أولى لمعالجة هذه الظاهرة من منطلق نفسي فردي. معتمدة أسلوب الملاحظة وتفسيرها من خلال معطيات علم النفس المعرفي، الذي تشكل موضوعاته منطلقاً لمعظم الاتجاهات العلاجية في علم النفس العيادي من خلال تركيز الأخصائي النفسي على تقييم سلامة العمليات المعرفية من ذاكرة وتفكير وانتباه كمؤشر رئيسي لمعظم الاضطرابات والمشكلات النفسية، وتحديد ما يحتاجه الشخص من علاج أو إرشاد أو حتى استشارة نفسية، إضافة إلى تصميم برامج الارتقاء بالصحة النفسية والعقلية.<sup>(١)</sup>

## أولاً: آلية التفكير واضطراباته:

### ١. آلية التفكير:

التفكير نشاط عقلي غير مباشر، فلكي يتوصل الإنسان إلى إقرار علاقات بين الأشياء، فإنه يعتمد على إحساسه وإدراكه المباشر، وأيضاً على معلومات الخبرات السابقة التي تتجمع في الذاكرة، ويرتبط ارتباطاً وثيقاً بالنشاط العملي للإنسان. وللوصول إلى نتاج التفكير النهائي يعتمد الإنسان على مجموعة من العمليات العقلية المتمثلة في "المقارنة"، و"التصنيف"، و"التنظيم"، و"التجريد" و"التعميم"، فضلاً عن "التحليل"، و"التركيب"، و"الاستدلال" (بنوعيه "الاستقرائي" و"الاستنتاجي").

وانطلاقاً من أن إدراك المثيرات الحسية يعتبر المادة الخام التي يعتمد عليها التفكير لتكوين المفاهيم، إذ نحن نتعامل مع المثيرات الموجودة في البيئة كما نفهمها وندرکها وليس بالضرورة كما هي عليه في الواقع، فإن أسلوب إدراكنا للأشياء من حولنا يحدد سلوكنا تجاه هذه الأشياء وتجاه هؤلاء الناس، وحواسنا هي وسيلة للانتباه إلى المثيرات من حولنا، ثم تأتي مجموعة من العمليات الذهنية التي تمثل التمثيل الذهني أو العقلي لتلك المثيرات، فنقوم باختيار بعضها، ثم نقوم بتنظيمها، ثم نفسرها، لكي يؤدي ذلك في النهاية إلى التصرف بشكل معين. ويعتبر كل من الإحساس والانتباه والتفسير مكونات رئيسية لعملية الإدراك، وبذلك فإن قصور عملية الإدراك يكون نتيجة لقصور أحد مكوناته، بدءاً من الإحساس حيث للحواس طاقة محددة، تختلف قدرتها من شخص لآخر أحياناً، ولدى نفس الشخص من مدة لأخرى أحياناً أخرى، وكذلك الحال بالنسبة للانتباه، على الرغم من قدرتنا على الإحساس بكثير من المثيرات البيئية، إلا أننا لا نلتفت إليها كلها، بل ننتبه لبعضها ونتجاهل البعض الآخر، وهكذا نمارس انتباهاً انتقائياً لبعض

المثيرات، وما ننتبه له قد لا ندركه على حقيقته وبشكل كامل، بل إننا قد ندركه على خلاف حقيقته أو بشكل جزئي. وأخيراً يأتي "التفسير" ليعطي المعنى لما أحسسنا به وانتبهنا إليه، وبالرغم حرصنا على سلامة ونقاء مدركاتنا من التحيز، فإن خصائص الموقف الذي نعيشه قد يجعل ذلك صعباً، فنحن قد لا نحسن التفسير أو الإدراك عندما تكون معلوماتنا عن الشيء محدودة أو متناثرة وغير مرتبة<sup>(١)</sup>.

## ٢. أخطاء التفكير وقصور الادراك ونقص المعرفة واضطرابات التفكير:

وبما أن التفكير هو التدفق الهادف الموجّه للأفكار والرموز والتداعيات، والمثار بمشكلة أو واجب، والمؤدي إلى استنتاج نهائي موجّه، فقد يكون هذا التفكير طبيعياً أو شاذاً، والشذوذ في التفكير قد يكون اضطراباً في مجرى التفكير أو شكله، أو اضطراباً في محتوى التفكير، وغالباً ما تفضي هذه الاضطرابات بسياقاتها المختلفة إلى اضطرابات نفسية وعقلية عصابية وذهانية، كالفصام والبارانويا وغيرها من الاضطرابات<sup>(٢)</sup>.

ولا بدّ من التنويه هنا أننا في معرض حديثنا عن عيوب التفكير وأخطائه لا نقصد الشذوذ في نتاج التفكير ومحتواه ومجراه، وإنما نتحدث هنا عن التفكير كدلالة للشخصية بصفته جزءاً عضوياً وظيفياً من البنية الكلية للشخصية، فنظام الحاجات والدوافع والعواطف والانفعالات لدى الإنسان، واتجاهاته والقيم والميول والخبرة السابقة، والإحباطات والإشباع في حياته، كل هذا ينعكس على تفكيره ويوجهه، بل إن أسلوب الفرد في التفكير،

(١) انظر: أحمد ماهر، السلوك التنظيمي: مدخل بناء المهارات، بيروت، الدار الجامعية، دط، دت، ٢٠٠٧م.

(٢) انظر: عبد المسيح خلف، اضطرابات التفكير، استشاري الأمراض النفسية في جامعة دمشق. بحث منشور في موقع مشفى البشر للأمراض النفسية، على الوصلة:

يتحدد من أسلوبه في الحياة بصفة عامة<sup>(١)</sup>.

وكذلك الحال ينبغي - حين نتحدث عن أخطاء التفكير - أن نحذر الخلط بين قصور الإدراك وافتقار المعرفة، فالإدراك ليس مطابقاً بالضرورة لمعرفة حقيقة الشيء، وإنما هو طريق النظر في المعرفة المتوافرة، كما أشرنا سابقاً، فعيوب التفكير لا تقع غالباً في قصور المعرفة، بل في قصور الطريقة التي ننظر بها إلى الأمور، والانفعالات والاعتقادات التي يحملها الإنسان تجاه الموضوع الذي يعد محور التفكير وموضوعه.

هذا البحث سيتناول ظاهرة التكفير المبالغ فيه بوصفها ظاهرة نفسية، من خلال ارتباطها بأخطاء التفكير، ويستند إلى ما أورده علماء النفس لفهم كيف تحدث هذه الظاهرة من خلال تلك الأخطاء، وذلك مع إيراد أمثلة من فتاوى التكفير تم اختيارها من بين فتاوى كثيرة، كونها نموذجية في التدليل على هذه الأخطاء. وينبغي التنويه إلى أن التكفير المقصود هنا هو التكفير غير المعتبر شرعاً، والذي يرجع إلى خلل في الحكم العقلي في التكفير وليس إلى موضوع التكفير ولا محله.

### ثانياً: التكفير والتحيز والنظرة الجزئية في التفكير:

إن النظرة الجزئية أو الضيقة هي - إلى حد بعيد - السبب في الخطأ الرئيس في التفكير، وهو خطأ في الفهم وقصور في الإدراك، ففي هذه الحالة ينظر من يفكر إلى جزء من "الموقف" فحسب، ويقيم حجته على أساس ذلك، بمعنى آخر يقوم بفهم الأمور بظواهرها الخارجية دون النفاذ إلى دواخلها ودلالاتها ومكوناتها وأبعادها الأساسية، التي تعين على التصور الكامل والمعرفة الأقرب لحقيقة الأمور، والحكم الصحيح عليها. وقد أطلق بعض

(١) انظر: محمد عوض الترتوري، النمو المعرفي عند جان بياجيه، ٢٠٠٣م، على الموقع:

<http://www.horoof.com/dirasat/piaget.html>

علماء النفس على هذا الخطأ اسم "خطأ المسار الواحد"، وهو خطأ يحدث أثناء عملية التفكير عندما تتطلب الانتقال من فكرة إلى أخرى وصولاً للحكم النهائي، في مثل هذا الخطأ يميل الإنسان لتجاهل العوامل الأخرى التي تشكل الموقف الأساسي، ويعتبر هذا الخطأ ناجماً عن أخذ الأمور ببساطة وعدم الاهتمام بجميع العوامل المحيطة الأخرى وإهمالها<sup>(١)</sup>.

يمكن أن نأخذ قضية الحكم على مانعي الزكاة بعدم الردة بأنه نظرة جزئية، فقد كان اجتهاد الخليفة الراشد الأول أبي بكر - رضي الله عنه - أن المسألة ليست مسألة منع للزكاة، وإنما هي خروج عن الأمة بحجة الزكاة، ولها قال - رضي الله عنه -: "والله لو منعوني عقلاً كانوا يؤدونه إلى رسول الله - ﷺ - لأقاتلهم على منعه" جواباً على من نظر إلى جزء من المسألة وهو عدم دفع الزكاة. وكان رد أبي بكر - رضي الله عنه - توسيعاً للنظر في المسألة وأن النظرة الجزئية لا تكفي فقال "والله لا أفرق بين شيء جمع الله بينه، والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة". هذا المثال يعكس ضرورة النظر الكلي للمسألة، وأن النظرة الجزئية قد تؤدي إلى أضرار فادحة عندما تكون متعلقة بولادة الأمر.

أيضاً، غالباً ما تتجم النظرة الجزئية للأمور عن السطحية في فهم الحدث دون التوغل في عمقه وأغواره والمعاني المترتبة عليه لإيجاد حل صحيح وإعادة النظر في التعامل معه. وهو بمنزلة الفشل في التوصل لفكر موضوعي أو حقيقي أو حتى مقارب للحقيقة عن حدث محدد يحدث في العالم من حولنا؛ سواء على المستوى الشخصي كإدارة الزوج لمشاكل أسرته أو المدير لمشاكل إدارته على سبيل المثال صعوداً إلى المستوى العام من فتن تحدث بين قوميات أو

(١) انظر: إدوارد ديونو، التفكير العلمي، ترجمة خليل الجيوسي، أبو ظبي، منشورات المجمع الثقافي،



ديانات أو مذاهب أو أي جماعات من البشر لها اعتقادات مختلفة وأفكار مختلفة؛ أي رؤية من اتجاه واحد وغالباً ما يكون الأقصر والأسهل. يروى أن أحد العلماء حين وقع مرة في يد بعض الخوارج، فسأله عن هويته فقال: مشرك مستجير، يريد أن يسمع كلام الله وهنا قالوا له: حقاً علينا أن نجيرك، ونبلك مأمك وتلوا عليه قول الله تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ﴾ تختصر هذا القصة بشكل واضح التناقضات والآثار الخطيرة التي يمكن أن يؤدي إليها التكفير المستند على حكم سطحي.

تتنوع الأسباب التي تجعل التفكير يقف عند الشكل الظاهري للحدث، ويعيقه عن الدخول وراء كواليسه للحصول على التفسير الواضح له، فبعض هذه الأسباب تتضمن "السمات الانسحابية" في التفكير التي تجر الإنسان خارج حلبة الفكر لسبب ما؛ غالباً ما يكون متمثلاً في قلة مصادر المعرفة والمعارف العلمية التي يستند إليها الإنسان في حكمه، فيكتفي بما اجتمع لديه من معارف كأساس لحكمه ونتاج تفكيره، وأحياناً أخرى يقف الخوف المترسخ في اللاشعور ويختبئ الخوف داخل النفس فيعطلها أو يشلها عن التفكير خوفاً من العواقب تجعل الإنسان يخشى تكرارها دون أن يعي بذلك، فيمنع نفسه تلقائياً من الخروج إلى الساحة الواسعة للأفكار والخيال خوفاً من شيء ما لا يعرفه ولا يستطيع أن يواجه نفسه به إلا بإرادة قوية، وكذلك الحال في الاعتمادية والسلبية، والإحباط.

واحد من الأمثلة على ذا النوع من التفكير الذي تجتمع فيه النظرة الجزئية والسطحية وتؤدي إلى حكم التكفير، وهو الحكم بالمشاركة في المجالس التشريعية بالنسبة للأقليات المسلمة في الدول غير المسلمة وذات الأنظمة الديمقراطية التي تقوم فيها المجالس التشريعية (البرلمانات) لها دور في سن

القوانين التي تسيّر أمور الدولة والتي تؤثر بحياة مواطنيها، فقد ذهب البعض إلى أن الانضمام إلى المجالس التشريعية يقتضي إقراراً بنظامها وهذا الإقرار هو بمنزلة الإيمان، وبما أن الحكم ينبغي أن يكون لله، وأن السيادة المطلقة هي لأوامره، فإن في الإقرار بالنظام الديمقراطي إقراراً لسيادة شعبٍ تعلو على سيادة الحكم لله - والعياذ بالله - . بالإضافة إلى ذلك فإنه بالنسبة إلى هؤلاء "مفسدة المشاركة في المجالس التشريعية أكبر من المصلحة". لكن النظر الذي يحكم على الاعتقاد بجواز المشاركة في المجالس التشريعية على أنه نوع من الكفر العملي في هذه المسألة بالذات يستند إلى نظر جزئي؛ لأنه ينظر إلى جزء من المسألة وهو الإقرار بالنظام الديمقراطي، وسطحي؛ لأنه ينظر إلى طبيعة هذا الإقرار باعتباره إقراراً عقدياً وليس إقراراً موضوعياً (اضطراباً) إي إقرار بما هم بطبيعة الحال خاضعون له عملياً، وليس إقراراً بصحته أو صوابه أي بمعنى التعامل بواقع يحصل على الأرض ليس لديهم القدرة على تغييره فهو أمر يدخل في الأحكام الفقهية الفرعية وليس في المستوى العقدي<sup>(١)</sup>.

بينما يتضمن القسم الثاني صفات عدوانية تدفع بصاحبها إلى الساحة الفكرية متبنياً رأياً واحداً بهدف قمع الآراء الأخرى، ويأتي من أهمها التعصب الذي يلغي العالم بما فيه ولا يضع أمام العقل إلا ما يتعصب من أجله؛ لذا فإنه يلغي عملية التفكير السوي. وقد تكون الحقيقة واضحة لغالبية المحيطين وبشكل شديد المنطقية ولكن الإنسان المتعصب لا يدرك نهائياً أنه يضيع قضيته بهذا التشنج وما إلى ذلك، ولكنه لا يستطيع أن يُخرج نفسه من

(١) انظر: خالد بن عبد الله الشمراني. التعبير عن الرأي: ضوابطه ومجالاته في الشريعة الإسلامية، مركز التأصيل للدراسات والبحوث، جدة، ط١، ٢٠٠٩م. ص ٣١٣-٣٢٨.

المنظار الضيق جداً الذي يرى به الأمور ليضع نفسه خارج المضمار وينظر للأحداث بحيادية فيراها على حقيقتها.

أما النتائج المترتبة على مثل هذا الخطأ والعيب في التفكير فتتمثل في الاهتمام بصغائر الأمور، وعدم القدرة على الاستماع للآخرين بإنصات مع كثرة المقاطعة والانشغال بالدفاع عن النفس (وفي بعض الحالات يصبح الدفاع عدوانياً)، إضافة إلى عدم القدرة على تحمل الاختلاف في الرأي.

وهو سلوك يشكل أحد مظاهر التعصب، وقد قال الإمام الغزالي: "أنه من آفات علماء السوء"، الذين "ينظرون إلى المخالفين بعين الازدراء والاستحقار فتبعث منهم الدعوة بالمكافأة والمقابلة والمعاملة، وتتوفر بواعثهم على طلب نصرة الباطل ويقوى غرضهم في التسمك بما نسبوا إليه، ولو جاؤوا من جانب اللطف والرحمة والنصح في الخلوة، لاي معرض التعصب والتحجير، لانحجوا فيه، ولكن لما كان الجاه لا يقوم إلا باستتباع ولا يستميل الأتباع مثل التعصب واللعن والشتم للخصوم، اتخذوا التعصب عادتهم وآلتهم، وسموهم ذباً عن الدين ونضالاً عن المسلمين، وفيه على التحقيق هلاك الخلق ورسوخ البدعة في النفوس".<sup>(١)</sup>

وقد امتدت السطحية في الفهم والتفكير، التي ورثتها النظرة الجزئية، وأحياناً استعجال النتائج، إلى الدين نفسه، فأصبح تدين الكثيرين تديناً سطحيّاً، فتحول إلى التمسك بصور من العبادات، استغرقت الناس، وفصلت مفهوم العبادة عن الحياة، والسلوك والعمل.

فالتفكير الجزئي في الدين، أو في غيره يؤدي إلى تعدد وجهات النظر وتباعدها وتنافرها، واختلاف الأهداف والغايات إن لم يغيبها، وينتهي إلى

(١) انظر: الإمام أبو حامد الغزالي، إحياء علوم الدين، الهيئة العامة لمكتبة الاسكندرية، (د.ط)، (د.ت)، ج١، ص٤٠، باب: بيان القدر المحمود من العلوم المحمود.

الفشل، وتبديد الجهد، والعجز عن الوصول إلى الحق، والغاية المنشودة. كما أن التفكير الجزئي أو السطحي، دليل على الجمود والتقليد، وضعف القوى العقلية، والميل مع الهوى. وخطورته تكمن في أنه تفكير انتقائي ينتهي غالباً إلى أحكام خاطئة مضللة، تمزق وحدة الموضوع، ووحدة الجماعة، ووحدة الهدف.

لذا، فقد نفى الله - تبارك وتعالى - عن نبيه ﷺ هذه الصفة فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾ (الأنعام: ١٥٩). وقال - تعالى - أيضاً: ﴿إِذْ تَلَقَوْهُ بِالسِّنْتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيئًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ﴾ ﴿وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ﴾ ﴿يَعْظُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (النور: ١٥-١٧). فجزئية التفكير، التي تركز على جزء من الظاهرة، ثم تعمم الحكم، هو الذي يسميه القرآن بـ"ظاهر العلم" (انظر: سورة الروم، الآية ٧)، أي العلم السطحي الذي يقود إلى نتائج جد خطيرة على مستوى الفرد والجماعة قال - تعالى -: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ..﴾ (يونس: ٣٩). فهذا النوع من التفكير الجزئي، والعلم السطحي، إنما قوامه على الظن والهوى، قال تعالى: ﴿إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ..﴾ (النجم: ٢٣). وهو ما نهى عنه النبي ﷺ أيضاً بقوله: "إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث"<sup>(١)</sup>.

وفي الواقع إنه من السهل أن يصر المرء على وجهة نظر معينة متعمداً كان أو غير متعمد، طالما أنه يستطيع أن يشيّد حجة متسقة منطقياً يعتمد عليها في إقناع الآخرين، ويصعب - إن لم يكن يستحيل - غالباً اكتشاف الخطأ

(١) انظر: سارة بنت عبد المحسن بن جلوي آل سعود، السطحية وغياب الهدف، بحث منشور.

وإقناع صاحب النظرة الجزئية المتحيزة في التفكير بخطئه، وأن هناك أموراً كان من الواجب عليه أخذها بعين الاعتبار، وذلك لأننا لا نستطيع إنكار صحة الانتقال من فكرة إلى أخرى ما لم يكن هناك إلمام بجميع جوانب الموضوع<sup>(١)</sup>.

أخيراً فقد أرجع الشيخ الألباني - رحمه الله - التكفير الذي انتشر بعد حرب التحرير الأفغانية إلى أمرين: أحدهما هو ضحالة العلم وقلة التفقه في الدين، والأمر الآخر - وهو مهم جداً - وهو أنهم لم يتفقهوا بالقواعد الشرعية التي هي أساس الدعوة الإسلامية الصحيحة، التي يعتبر كل من خرج عنها من تلك الفرقة المنحرفة عن الجماعة<sup>(٢)</sup>.

### ثالثاً: العجرفة والغرور في التفكير:

غالباً من يقل زاده في المعرفة فإنه يسهل انزلاقه إلى الإحساس بأنه جاء بما لم يأت به الأولون، وأحد أهم ملامح السلوك النفسي الذي يمكن أن تشير إلى هذا النوع من الناس من صغار طلبة العلم أو القادميين إلى العلم الشرعي الخارجيين، وكثيراً ما يكون أحد مظاهر هذا السلوك والعجب بالنفس هو الهجوم على كبار العلماء واتهامهم بالجهل وقلة العلم. وليس غريباً أن يكون معظم قادة التنظيمات التكفيرية مهندسين وأطباء، وغيرهم من الاختصاصات المعرفية التي لا تمتد إلى العلم الشرعي بصلة. وهو أمر شبيه بحال الخوارج الذين وصفهم النبي - ﷺ - في حديث ذو الخويصرة "يقرؤون القرآن لا يجاوزوا تراقيهم، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية"<sup>(٣)</sup>.

(١) انظر: إدوارد ديبونو، التفكير العلمي، م.س، ص ١٠٦.

(٢) انظر: محمد ناصر الدين الألباني. فتنة التكفير، إعداد: أبو أنس علي بن حسين أبو لوز، دار الوطن، الرياض، ط١، ١٩٩٧م. ص ١٣.

(٣) انظر: الإمام أبو عبد الله البخاري، الجامع المسند الصحيح، تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة، الرياض، ط١، ٢٠٠٢م، ج٤، ص ٢٠٠، رقم ٣٦١.

يبرز خطأ الغرور حينما يبدو التفسير لأمرٍ ما منطقياً وبسيطاً واضحاً، ويؤخذ هذا التفسير حينئذ على أنه صحيح، ويكمن مصدر الخطأ في الرضا البالغ عن التفسير المبدئي مما يعوق البحث عن أية تفسيرات أخرى ممكنة، قد يكون أكثر صوابية من التفسير الأول. وثمة سببان مهمان لحدوث هذا النوع من الخطأ، أولهما: أنه لا يبدو خطأً على الإطلاق؛ إذ غالباً ما يكون "كافياً" ظاهرياً. والثاني: هو وجود طريقة منطقية لتبريره؛ مما يعوق البحث عن طرق أخرى.

خلافاً للأخطاء السابقة، فإن هذا الخطأ هو خطأ مستقبلي وليس متعلقاً فقط بالحاضر أو الماضي، ولا يكون الخطأ في الفكرة نفسها، بل في عدم السماح لها بالتطور، فقد تكون المعلومات نظمت بطريقة صحيحة كي تصل إلى نتيجة، ولكن الخطأ يحدث عندما يتحكم الانفعال الموصوف بـ"العجرفة" بالنتيجة وتجعلها جامدة؛ ذلك أن العجرفة والغرور في التفكير يمنعان إدخال تعديلات على الأفكار، وعندما توجد العجرفة عند فكرة ما فإنها تمنعها من الارتقاء والمراجعة الطبيعية، وعندما يتوقف التفكير عند نقطة ما، فإن ذلك ادعاء بأن أي تعديل لن يحسّن من نوعية الفكرة. وكون الظروف بطبيعتها تتغير وكذلك الأفكار التي تواكبها، ولكن حتى وإن لم تتغير الظروف، فلن يستفيد "صاحب الفكرة" من أفضل المعلومات المتاحة بسبب طريقة التفكير هذه، فالمعلومات التي تصل إلى العقل على صورة أفكار خلال مدد زمنية، وتستمر هذه الأفكار في التعديل والمراجعة أثناء تخزينها داخل العقل وإعادة تنظيمها، وبهذه الطريقة تقترب الفكرة شيئاً فشيئاً من المعلومات المتاحة، حتى وإن لم تتغير الظروف فإن العجرفة تمنع إدخال أي تعديلات على الأفكار.

وبالإضافة إلى منع تطور الأفكار ومراجعتها، فإن العجرفة والغرور في

التفكير يمنعان وصول الأفكار الأخرى، ليس فقط لأنها غير مناسبة؛ بل - أيضاً - لأن الفكرة التي تكون محاطة بالعجرفة قد تبدو مناسبة، حتى ولو كانت الأفكار الأخرى غير مناسبة كالفكرة السابقة، فإن توجيه الاهتمام نحو الأفكار الأخرى سوف يؤثر في تغييرها إلى درجة قد تفوق الفكرة المحاطة بالعجرفة. والعجرفة في التفكير - أيضاً - تغلق إمكانية وصول البدائل الأخرى التي لم توجد حتى الآن، أي التي يتم العثور عليها عن طريق الصدفة ربما.

ويرى علماء النفس أن العنصر الأصيل للتناقضات هو "التكبر"، إذ يذهب أحد علماء النفس مثلاً: إلى أن مشاهدات الشخص المتكبر خاطئة، ومن الخطورة بمكان، أن نفاجئه بالحقيقة رأساً وبدون مقدمات، فربما كان ذلك سبباً لتثبيت عاداته السيئة؛ لأنه لن يعترف بأنه يتحدث بالتناقضات، ويسند كلامه بأدلة وتبريرات، وإن اللهجة الناتجة من المنطق الخاطئ، واضحة عند الطفل المعقد، وإن خطر هذه الحالة يكمن، في أنه يستند إلى هذا المنطق الخاطئ دائماً، ولا يرضى بالتنازل عنه، ولذلك توجد في ذهنه صور مغلوبة تماماً عن الأشياء، والموجودات كأنها قد نُظِرَ إليها من خلال أشعة منكسرة<sup>(١)</sup>.

وقد بحث العالمان "سريو" و"كاب كرا" هذه الأمور بصورة مفصلة تحت عنوان "الهديان في التفسير"، وتوصلا إلى أن هؤلاء المصابين لا يبدو عليهم الهديان لأول وهلة؛ لأنهم لم يفقدوا قدرتهم على الاستدلال، وإنما الذي يتحدث معهم يتصور أنهم مفكرون، ومتعمقون في القضايا، ولهذا السبب بعينه فقد كانت هذه الحالات تسمى في السابق بـ"الجنون المعتدل". كما أن

(١) انظر: عبد الرحمن العيسوي، موسوعة ميادين علم النفس بين الخرافة والإبداع، دار الرتب الجامعية، ج٢، ٢٠٠٤م، ص ٥٤١.

اصطلاح "الجنون الجزئي" يمكن أن يشير إلى هذه الظاهرة أيضاً<sup>(١)</sup>. إن الاختلال الأساسي - الذي يوجه هذا الميل لدى البعض - عبارة عن حالة نفسية ناشئة من التكبر، بحيث تمنع المصاب من أن يكون حيادياً في تحكيمه، فيتهم البعض بدون دليل ما، بكونهم مجرد عقبة في سبيل تحقيق أهدافه لا أكثر، أي أنهم لا يمتلكون وجهة نظر جديرة بالاعتبار، هذا الاختلال الذي يختص بميزات معينة، يشاهد في الحياة الاعتيادية، خصوصاً في الحياة السياسية، التي تجد فيها الأحقاد والأهواء، والأغراض الشخصية الميدان الواسع لنشاطها.

يذكر أحد قادة الجماعات الإسلامية في هذا السياق أنه كفره بعض "غلاة المكفرة" لما خالفهم في حكم بالتكفير وناظرهم في إبطاله<sup>(٢)</sup>.

من أمثلة ذلك الحكم بالكفر على عموم المسلمين، بناء على أن حكام المسلمين لا يحكمون بما أنزل الله، والله - تعالى - قال: ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾، وبما أن المسلمين ساكتون فهم راضون، لأن السكوت علامة الرضا، فإن السكوت عند الحاجة إلى البيان بيان، فهم راضون بالحكم بغير ما أنزل الله، ومن يرض بالحكم بغير ما أنزل الله فهم بذلك كافرون على العموم في هذه الفتوى العديد من المشكلات التي ناقشها العلماء، انتشرت هذه الفتوى لدى بعض الجماعات التكفيرية في فترة السبعينات والثمانينات، وعلى أساسها اعتُبر موظفو الدولة كفاراً جميعاً فضلاً عن الناس العاديين.

يستند هذا الحكم على قياس بسيط يطابق بين رضا الحاكم بغير ما

(١) المصدر نفسه.

(٢) انظر: أبي محمد عاصم المقدسي. الرسالة الثلاثينية في التحذير من الغلو في التكفير، موقع منبر

التوحيد والجهاد على شبكة المعلومات. د.ط، ١٩٩٩م، ص ٨٩.



أنزل الله وبين صمت الرعية على الحكم بغير ما أنزل الله، عن طريق العلة المشتركة بشيء يناقض أصل اعتقادي وهو الحكم بالله وحده. لكن التدقيق في هذه الفتوى كما ذكر عدد من العلماء يكشف عن عدد من الأخطاء وراء هذا الحكم العام المستند على قواعد بسيطة، ومن أهم هذا النقد هو التدقيق في معنى الرضا والفرق بين رضا الحاكم وسكوت المحكومين، إضافة إلى أن مفهوم الحكم بغير ما أنزل الله على ما قال العلماء هو حكم ليس على إطلاقه، فمن حكم بغير ما أنزل الله معصية مع اعتقاده بوجوب الحكم بما أنزل الله، يختلف عن حال الذي يحكم فيه حاكم بغير ما أنزل الله جحوداً<sup>(١)</sup>.

ولقد أدى هذه التكفير إلى حوادث مؤسفة في بعض البلدان الإسلامية ولم يردع المؤمنون بهذه الفكرة إلى الآثار الكارثية التي سببتها ونفور المجتمعات المسلمة من أصحابها، ومع ذلك وإلى اليوم بساطة هذه الفكرة تغري بعض ولاة المتطرفين باستباحة دماء المسلمين، وإن كان الأشخاص الذين يعتقدون هذا النمط من التفكير قلائل جداً.

#### رابعاً: التكفير واعتماد الحكم الأولي كأساس للتكفير:

اعتماد الحكم الأولي كأساس للتكفير ينتج حين يستخدم التفكير لا للوصول إلى الحكم، وإنما لمناصرة حكم تم إصداره سلفاً، على أساس من التحيز أو العاطفة أو الاعتقاد أو الاعتماد على التكتل الاجتماعي (كثرة المعتقدين له). ومما يؤسف له أن التعليم المدرسي يشجع هذه العادة، إذ يُدرب التلميذ على إبراز وجهة نظره في أول المقالة كي يستخدم بقية المقالة في الدفاع عن وجهة النظر هذه. ولا يكمن الخطأ في إصدار حكم ابتدائي في

(١) انظر: الألباني. فتحة التكفير، (م.س)، ص ١٨. وأبو محمد المقدسي. الرسالة الثلاثينية، (م.س)، ص

حد ذاته، ولكن الخطأ في توجه العقل نحو خلق حجج متسقة منطقياً لدعم هذا الحكم، ومن سمات العقل أنه إذا لم يجد ما يشغله فإنه يندفع إلى صياغة الأحكام متأثراً بالبعد العاطفي "أحبذ كذا أو لا أحبذه"، بينما يحتاج المرء إلى مزيد من سعة الأفق لتمحيص الموقف والتعامل مع الحكم الابتدائي كنقطة عبور للحكم النهائي.

يذكرنا سلوك الصحابة الكبار - رضي الله عنهم جميعاً - كيف أنهم كانوا يرجعون إلى الحق أينما بدا لهم، ولم يكن عسيراً على كبار الصحابة الرجوع عن الخطأ إلى الصواب، أمثلة كثيرة يمكن ذكرها ومن أبرزها حادثة استشهاد القراء وجمع المصحف، والتي ورد فيها أن عمر بن الخطاب أشار على أبي بكر بجمع القرآن، فقال أبو بكر "كيف أفعل شيئاً لم يفعله رسول الله - ﷺ -" فلم يزل عمر يراجع حتى شرح الله لذلك صدره، والأمر نفسه جرى مع زيد بن ثابت الذي تكفل بتتبع أجزاء القرآن. حيث كان أبو بكر يرى أن رأيه صوابٌ ولكن عمر - أيضاً - كان يمتلك الحجة الكافية على صحة وجهة نظره، وكان بينهما في الأمر نقاش طويل عبر عنه بعبارة "فلم يزل يراجع" حتى رجع إلى رأي عمر ولم يكن لديه مشكلة في ذلك؛ لأنه وجده صواباً، وكان من السهل عليه أن يرجع عن الحكم الأولي الذي بدا له. من وجهة نظر علم النفس يمر التفكير القويم، بوصفه عملية من العمليات العقلية العليا، عبر ثلاث مراحل لينشأ بعدها معالجة صحيحة وقوية لأي ظاهرة أو إشكالية تواجه العقل البشري؛ فالمرحلة الأولى لبناء حكم منطقي حول المشكلة التي تواجهها هي "التفكيك"، فالتفكيك لأي ظاهرة أو إشكالية يعطينا تفسيراً لها • ولكيفية نشأتها، والمقصود بالتفكيك - هنا - فرز أجزاء الظاهرة وما له علاقة بها، ثم استبعاد ما ليس له صلة بالظاهرة و تكوينها الواقعي، بحيث تُصفى إلى أجزاء مفككة لها ارتباط بالظاهرة

وتكوينها، فهذه المرحلة تربط الذهن بما في الواقع من تعقيدات، فلا يكون تفكيرنا مثالياً أثناء طرح الحلول.

تأتي بعد ذلك المرحلة الثانية وهي "تركيب المفكك"، وهي مرحلة يتم فيها وصل أجزاء الظاهرة، وربطها بعضها البعض، بحيث تشكل صورة ذهنية متكاملة لتلك الظاهرة، تساعد هذه المرحلة الفكرية العقل في معرفة ما يدخل إليه من معلومات غير صحيحة، فالعقل لا يفرق بين المعلومات الصحيحة من غير الصحيحة ابتداءً، وإنما يتمكن من ذلك من خلال الاعتماد على ثقافتنا والمعلومات التي نملكها حول تلك المشكلة، والتي تشكل أدلة أو قرائن على الصحة أو الخطأ، فمن خلال التأمل والتفكير في الصورة المركبة من أجزاء الظاهرة تنشأ المرحلة الثالثة، وهي "مرحلة التأسيس"، التي تقوم على تأسيس تصور كامل للظاهرة أو المشكلة، ثم تكوين الأحكام وطرح المعالجات المناسبة لتلك الظاهرة.

إنه من خلال هذه العمليات التدريجية الفكرية نستطيع بناء منهجية فكرية ذات اتجاه منطقي في الحكم على الأشياء والظواهر من حولنا، وتفسير ومعالجة ما يطرأ علينا من الإشكاليات والظواهر المعقدة التي تورق عقولنا دوماً. ويجمع معظم علماء النفس على أن التفكير الناقد، الذي يصل بصاحبه إلى اتخاذ القرار الصائب حيال الموقف الذي يواجهه، يجب أن يمر بمراحل البحث عن المعلومة الصحيحة، وما تتطلبه من انتباه وإدراك للمفاهيم والأفكار وتنظيمها، ومن ثم ربط المعلومات التي تم التوصل إليها، والعمل على تقويمها من خلال حل التناقض الموجود بين المعلومات والمفاهيم، وبعدها تأتي "مرحلة التعبير"، حيث يكون حل التناقض بصفة مؤقتة أو أولية، وهو معرض للتغذية الراجعة، بحيث قد تؤدي معلومة جديدة إلى عودة المفكر الناقد إلى خطوة مبكرة من عمليات التفكير الخاصة بحل التناقض المقدم.

أما "مرحلة التكامل" وهي المرحلة الأخيرة والتي يتم فيها تكامل النظرية الشخصية مع القاعدة المعرفية، وهي تحدث في نهاية النشاط، ويصل الفرد فيها إلى حالة من الارتياح المعرفي وإصدار حكمه على الموقف الذي هو بصدد معالجته<sup>(١)</sup>.

هذه الخطوات والمراحل لا بد من المرور بها جميعها للوصول إلى الحكم الصائب أو الأقرب للصواب، لكن التفكير واتخاذ القرار كمهارة لا يتم إتقانه فطرياً دون تدريب وممارسة، وهناك من الأشخاص من يقف عند مرحلة معينة ويطلق حكمه دون تمحيص أو تدقيق أو مراجعة لهذا الحكم، فيقف بذلك عند "مرحلة التعبير" عن الحل الذي توصل إليه مبدئياً، دون أن ينتظر التغذية الراجعة التي يمكن أن يحصل عليها من معلومات أو مواقف جديدة قد تعترضه ولم يعر لها انتباهاً في اتخاذ حكمه الأولي، وفي هذه الحالة تنتج الأحكام الخاطئة حيال الأشخاص والمواقف، وبدلاً من أن ينصرف الفرد للتأكد من صحة حكمه وقراره من خلال إيجاد المزيد من الحجج والأدلة، فإنه ينبري للدفاع عن هذا الحكم وتأكيد صحته.

هذا ما أكد عليه العالمان النفسيان واطسون وجليسر (١٩٨٠م) عندما عرّفا التفكير الناقد بكونه محاولة مستمرة لاختبار الفروض والآراء في ضوء الأدلة التي تسندها بدلاً من القفز إلى النتائج، ويتضمن معرفة طرق البحث المنطقي التي تساعد في تحديد مدى صحة مختلف الأدلة، للوصول إلى نتائج سليمة، واختبار صحة النتائج، وتقويم المناقشات بطريقة موضوعية<sup>(٢)</sup>.

(١) انظر: إبراهيم علي، التفكير الناقد بين النظرية والتطبيق، عمان، دار الشروق، ٢٠٠٩م.

(٢) انظر: عبد المحسن المبدل، المكونات الإيجابية للبيئة الصفية وعلاقتها بمهارات التفكير الناقد، رسالة دكتوراه، قسم علم النفس، جامعة الإمام محمد بن سعود، كلية العلوم الاجتماعية، ١٤٣٠هـ - ١٤٣١هـ.

يمكن - هنا - أن نستدل بالحديث النبوي الشريف: "لا تكونوا إمعة تقولون إن أحسن الناس أحسناً، وإن ظلموا ظلمنا، ولكن وطنوا أنفسكم إن أحسن الناس أن تحسنوا وإن أسأؤوا فلا تظلموا"<sup>(١)</sup>، للدلالة على أن على المرء ألا يقبل بالأحكام الأولية الجاهزة وإنما عليه أن يلتفت إلى نفسه، ويعيد النظر في صحة الموقف الذي يتخذه ويتأكد من صحته بدلاً من أن يقفز إلى النتيجة والعمل. وقد نقل عن ابن مسعود قوله "أغد عالماً أو متعلماً ولا تغد إمعة فيما بين ذلك"<sup>(٢)</sup>

وعوداً إلى موضوع التكفير، فإنه يمكن القول إن خطأ اعتماد الحكم الأولي كأساس لإصدار حكم التكفير يمكن اعتباره بمثابة خطأ القفز إلى النتيجة وعدم التدرج في اتخاذ الحكم، إذ كلما قل عدد البدائل والاحتمالات التي يصل إليها الفرد كلما كانت إمكانية وقوعه في الحكم الخاطئ أكبر بدورها، وبالطبع يفتقر هذا النمط من التفكير للمرونة التي تعتبر أهم سمات التفكير الإبداعي والناقد. نُقل عن العلامة الشوكاني: "اعلم أن الحكم على الرجل المسلم بخروجه من دين الإسلام، ودخوله في الكفر لا ينبغي لمسلم يؤمن بالله واليوم الآخر أن يقدم عليه، إلا ببرهان أو وضوح من شمس النهار، فإنه قد ثبت في الأحاديث الصحيحة المروية عن طريق جماعة من الصحابة أن "من قال لأخيه يا كافر فقد باء بها أحدهما"، هكذا في الصحيح وفي لفظ آخر في الصحيحين وغيرهما "من دعا رجل بالكفر أو قال عدو الله وليس كذلك إلا حار عليه" أي رجع. وفي لفظ في الصحيح "فقد

(١) انظر: الإمام أبي عيسى الترمذي. الجامع الكبير، تحقيق بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط١، ١٩٩٦م. ج٣، ص٥٢٨، رقم ٢٠٠٧.

(٢) انظر: أبو جعفر الطحاوي. شرح مشكل الآثار، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٩٩٤م، ج١٥، ص٤٠٦، رقم ٦١١٦.

كفر أحدهما". ففي هذه الأحاديث وما رود موردها أعظم زاجر، وأكبر واعظ عن الإسراع في التكفير".<sup>(١)</sup>

### خامساً: اعتماد الحكم المناوئ (النقيض) أساساً للتكفير:

وهو التأكيد على صدق الحجة بإبراز خطأ منطقي في الحجة المعارضة، لنصل إلى القول: "أنت على خطأ؛ ومن ثم فأني على صواب"، إلا أن الخطأ المنطقي في حجة أي إنسان لا يعني بأية حال ضرورة صحة الحجة المعارضة، فهذا من قبيل إلزام مالا يلزم، والواقع أن أغلب الخلافات التي تحدث وتتسع بين الأفراد، تنتج وتستمر بسبب سوء توجيه الحوار بين الأطراف المختلفة، فكل طرف ينبري لإبراز أخطاء الآخرين، معتبراً أن ذلك كافياً لتأكيد صحة موقفه، بالرغم من احتمال أن يكون الجميع على خطأ، أو الجميع على صواب ولكن من وجهات نظر مختلفة.

من المنطقي في سياق عملية التفكير، أنه عندما يتوصل الإنسان إلى حكم ما فإنه يخصص من جهده وعقله ما يزيد عن ٩٠٪ للتحقق من صحته ومنطقيته أولاً، ومن ثم الدفاع عنه ثانياً، ولكن ما يحدث هنا أن الإنسان يتوصل لحكمه وينبري لتأكيد منطقيته والدفاع عنه من خلال إثبات خطأ وعدم صواب الأحكام المعاكسة والمناوئة لحكمه.

يمكن ملاحظة أن خطاب الحركات الإسلامية التي تتبنى العنف أو المغالية، كيف أنه مليء بالهجوم على العلماء والرد عليهم، والاعتماد على "إبطال" أدلة العلماء لإثبات صحة وجهة نظرهم. وبالرغم من أن خطاب الحكم الشرعي المتصل بالتكفير هو خطاب فقهي يتطلب أدلة فقهية معتبرة شرعاً لدى العلماء فإن خطاب هؤلاء المغالين، وإن كان يستند إلى بعض الحجج

(١) نقلاً عن: يوسف القرضاوي. ظاهرة الغلو في التكفير، مكتبة وهبة، القاهرة، ط٣، ١٩٩٠م، ص٩٤.

الفقهية (وهي حجج فيها نظر) فإن الاعتماد الأساسي في العديد من الأحكام يستند أساساً إلى نقد وجهة نظر علماء أهل السنة والجماعة.

وكثيراً ما ينشغل الإنسان بنقيض الفكرة؛ لأنه بالأساس لا فكرة (متماسكة) لديه، وربما يعتبر وجود الخصوم هدية له؛ لأنه يتم التعرف والتعريف بنا من خلال "النقيض"، ولا مبالغة أن كثيراً من الحركات والجماعات والأيديولوجيات ليس لها ظهور ولا حضور ولا تميز إلا عبر تحديدها بالأعداء، فهي فكرة يحدّها من الشرق مذهب، ومن الغرب تيار، ومن الشمال مؤامرة، ومن الجنوب مشكلة<sup>(١)</sup>!

وكما أشرنا سابقاً فإن الأصل في عملية التفكير واتخاذ القرار هو الوصول إلى بدائل عديدة، ومن ثم اختيار الأنسب من هذه البدائل، مع الأخذ بعين الاعتبار إمكانية مراجعة هذا الحكم في ضوء ما يستجد من معلومات وتحليلات، وهذا يقتضي - بالضرورة وضمناً - الاعتراف بوجود أكثر من حكم قد يكون صحيحاً، كما يقتضي الاعتراف بإمكانية خطأ الحكم الذي تم التوصل إليه.

ولكن ما يحدث في خطأ "الحكم المناوي" أن الإنسان لا يقبل بمنطقية بدائل القرار، وإنما ينطلق من اعتبار أن هناك حلاً وقراراً واحداً وحيداً وسليماً لكل موقف، وما عداه على خطأ حتماً، ونظراً لقلّة الحجج التي يستند إليها، ينطلق في إثبات حجته من هذا الاعتبار فقط، فيثبت صحة حكمه من خلال كشف أخطاء أحكام الآخرين، من منطلق أن إضعاف حكم الآخرين هو السبيل الوحيد لتأكيد صحة حكمه.

وغالباً ما يقع في خطأ "الحكم المناوي" الأشخاص الذين يبالغون في

(١) انظر: سلمان فهد العودة، النقيض. مقالة منشورة على موقع إسلام اليوم، انظر الوصلة:

<http://www.islamtoday.net/salman/artshow-28-127620.htm>

تأكيد حيادية قرارهم، فيقعون في وهم الحياد الكامل؛ الذي يظهر في إنكار وقوع الخطأ، وتصور وجود إمكانية القبض على الحقائق الصافية، ورؤية الأمور رؤية واحدة متطابقة مهما اختلف الناظرون، ومهما اختلفت زوايا النظر، وهذا في الحقيقة ممكن إلى حد بعيد في المسائل الرياضية والفيزيائية والكيميائية، أما في المسائل العقديّة والأخلاقية والتاريخية والاجتماعية والإنسانية عامة، فإن ادعاء الحياد من قبل بعض الناس، لا يبدو أن يكون وهماً من الأوهام.

وكلما قلّت ثقافة الإنسان وضاق صدره بالبحث عن المزيد من البدائل والإمكانيات، كلما أغرق بدوره في استخدام التعبيرات الدالة الأحادية، كـ"العامل الوحيد"، و"السبب الوحيد"، و"التفسير الوحيد"، و"الحكم الوحيد"، و"الدليل الوحيد"... إلخ. وهذا الاعتقاد بتوحد العوامل والأسباب والمشكلات والقرارات، يمتنعنا بدوره من البحث والتفتيش، ويُفقر حياتنا وتصوراتنا، بل إنه يجعلنا نرفض ما يمكن أن يغيّره حتى لو جاءنا من جهات متخصصة، بل نبيري - أيضاً - في إثبات خطأه بهدف تأكيد صحة قرارنا<sup>(١)</sup>.

وُصف هذا النمط من الشخصية، التي تتبع هذا الشكل من أشكال التفكير، بـ"الشخصية الدجمائية"، حيث يرى بعض الباحثين أن الدجمائية ظاهرة إنسانية، وأن البحث في مظاهرها يعني البحث في جذور التعصب والانغلاق وجمود العقل، وثنائية التفكير القطعي، والعدوان والتسلط، وأنها قد تبدو في حياة الإنسان العادي وفي أسلوب تفكيره وكيفية تناوله للموضوعات والأفكار، فالإنسان المغلق على نفسه أو على ما يعتقد، والذي يرى في أسرته عالمه الأوحده، ويرى في أفكاره قيمة قصوى، ليس بمقدوره أن

(١) انظر: عبد الكريم بكار، خطوة نحو التفكير القويم: ثلاثون ملاحظاً في أخطاء التفكير وعيوبه، عمان، دار الإعلام، ط٤، ٢٠٠٩م.



يتعايش مع أفكار الآخرين، فهو لا يجد بين أفكاره وأفكار الآخرين أي وجه من أوجه التواصل والالتقاء. إن شخصية تتناول الموضوعات والأفكار بأسلوب مغلق ومتفوق حول الذات هي شخصية دجمائية<sup>(١)</sup>.

وقد أشار عالم النفس ديونو<sup>(٢)</sup> إلى هذا النمط من التفكير باسم "القبعة السوداء"، حيث يركز هذا التفكير بشكل رئيسي على تقييم الأمور سلبياً، ويقوم المفكر الذي يرتدي القبعة السوداء بلفت الانتباه إلى الأخطاء، أو إلى عدم موافقة خبرة أو معرفة لفكرة معينة، كما يشير إلى عدم صلاحية الفكرة من الناحية العملية، ويبين مخاطرها والأخطاء في تصميمها.

ولا يعتبر تفكير القبعة السوداء نزاعاً أو خلافاً بقدر ما يعتبر بمثابة محاولة موضوعية لوضع العناصر السلبية على الخريطة، وقد يلفت تفكير القبعة السوداء الأنظار إلى الأخطاء في أسلوب التفكير والطريقة نفسها، إما عن طريق المقارنة مع فكرة ما بالماضي، أو تسليط الضوء على المستقبل لمعرفة ما سيحدث من أخطاء أو فشل، وفي الوقت نفسه لا يُعنى صاحب هذا النمط من التفكير بحل المشكلة بقدر ما يُعنى بالإشارة إلى خطئها ولفت الأنظار إليها. حين يثبت خطأ فكرة ما فإنه يحصل بذلك على الارتياح

(١) انظر: ناصر عبد الله بن سعد الأحمد الحربي، علاقة الجمود الفكري بأنماط التعلم والتفكير لدى طلاب وطالبات المرحلة الثانوية بالمدينة المنورة، رسالة ماجستير، كلية التربية جامعة أم القرى، ١٤٢٣-١٤٢٤هـ، نقلاً عن: إبراهيم وسليمان ١٩٩٢م.

(٢) إدوارد دي بونو (١٩٣٣م) من مواليد مالطا وخريج كلية سانت إدوارد، من ثم حصل على درجة الطب من جامعة مالطا الملكية ليتابع في جامعة أكسفورد ليحصل على علامات شرف في الفيزيولوجيا وعلم النفس، من ثم دكتوراه الفلسفة في الطب. ليمضي في متابعة الدكتوراه في كامبردج وبمنفس الوقت ضمن جامعة أكسفورد، وجامعة لندن وجامعة هارفرد. في عام (١٩٦٩م) أسس دي بونو أمانة الأبحاث الاستعرافية (Cognitive Research Trust) التي اشتهرت لاحقاً بكورت (CoRT)، واستمرت حتى الآن في وضع وتطوير مناهج تطوير تعليمية بناء على أفكاره. ألف أكثر من ٧٥ كتاباً مترجمة لأكثر من ٣٧ لغة.

والرضا، فطرح فكرة بناءة لا يأتي بإنجاز حتى يستطيع إثبات صحتها، وهذا يأخذ بعض الوقت، بينما الطريق الأسهل هو مهاجمة ومعارضة الفكرة المخالفة؛ مما يؤدي إلى الشعور بالتفوق. وغالباً ما يكون النقد هنا سهلاً؛ لأن ما يقوم به الإنسان في مثل هذه الحالة هو اختيار إطار لإصدار الحكم، وبيان أن الاقتراح لا يناسب ذلك الإطار أبداً<sup>(١)</sup>.

### سادساً: تضمين الذات في إصدار حكم التفكير (التعيز):

الحاجة إلى أن تكون على صواب طوال الوقت هو حاجة طبيعية، وهي تشكل عاملاً قوياً في تحديد اتجاه التفكير من بين عوامل أخرى عديدة؛ حيث يستخدم المرء تفكيره كي يحافظ على "صواب" موقفه، ثم يتمسك به. وبالرغم من كثرة ترديدنا للحكمة القائلة بأن "الاعتراف بالحق فضيلة" فإنه غالباً ما نجد أحداً صعوبة بالغة في الاعتراف بأن تفكيره كان "خطأ"، حتى بينه وبين نفسه! فالتفكير يُستخدم هنا لدعم الأنا، لا لاستكشاف آفاق الموضوع.

ولهذا السبب يغلب على هذا الأسلوب في التفكير الافتقار التام للموضوعية، برغم أن بناء الأفكار قد يكون منطقياً ومتسلسلاً لدى المفكرين، لكن الإدراك يكون منحازاً بشكل كبير. ووفقاً للعالم ديونو فإن هناك رأياً تقليدياً مفاده أن العواطف تفسد التفكير، وأن المفكر المتزن الفعال هو من يتصف بالهدوء والبرود والتجرد، ولا تهزه العواطف والمشاعر الشخصية، ويفترض أن يكون المفكر الجيد موضوعياً، وأن يجمع بين الحقائق ويأخذها بعين الاعتبار كما هي، وليس بناء على علاقتها باحتياجاته

(١) انظر: إدوارد ديونو، قبعات التفكير الست، ترجمة خليل الجيوسي، مراجعة: عبد الله البيلي، أبوظبي، المجمع الثقافي، ٢٠٠١م، ص ١٤١-١٥٩.

## العاطفية<sup>(١)</sup>.

إن تأثير العواطف والمشاعر الشخصية على التفكير يتجلى في ثلاثة اتجاهات، أولها في خلفية قوية من العواطف مثل الكره والشك والغيرة والحب، وهذا الخلفية تلون الإدراك كلياً وتحدد منه، وكثيراً ما تؤثر على نتائج التفكير كلياً، وهنا لا بد من إظهار هذه الخلفية من أجل ملاحظة تأثيرها ونتائجها. أما الاتجاه الثاني لتأثير العاطفة على التفكير فيتلخص في أن العاطفة تستثار ويتم تبنيها عن طريق الإدراك الأولي، وبعد ذلك يتلون تفكير الشخص ويوجه كل تفكيره نحو موضوع إدراكه الأولي. في حين الاتجاه الثالث يكون في تدخل العواطف في التفكير، ويكون بعد الانتهاء من عمل الخريطة الخاصة بموقف معين، حيث تحدد العواطف هنا الطرق على الخريطة وتشمل الاهتمامات والتفصيلات الشخصية<sup>(٢)</sup>.

تمثل الفتاوى الخاصة بتكفير ما يسمونه علماء السلطان أنموذجاً مثالياً لهذا النوع من التفكير فغالبا ما يخضع هذا النوع من الفتوى لاعتبارات تتعلق بميول قوية وشديدة من مطلقي أحكامها، وأيضاً غالباً ما تقع هذه الأحكام بمشكلة التفريق بين الرضا بالخطأ وعدم القدرة على تصحيحه، وبين التصرفات الخاصة بالعلماء وبين اعتقادهم<sup>(٣)</sup>. نعرض - هنا - نصاً لواحدة من هذه الفتاوى تعكس بوضوح تأثير الانفعال في الحكم:

(١) انظر: إدوارد ديبونو، قبعات التفكير الست، (م، س)، ص ٨٩.

(٢) انظر: المصدر نفسه، ص ٩٠-٩١.

(٣) أصدرت بعض الحركات الإسلامية في مصر فتوى بتكفير الشيخ محمد حسين الذهبي لعلاقته مع مؤسسة الحكم في مصر، وأدت هذه الفتوى إلى قتله رحمه الله، ومثل هذه الفتوى صدرت من بعض الجماعات أيضاً بتكفير الشيخ محمد سعيد رمضان البوطي والشيخ يوسف القرضاوي وعدد آخر من العلماء غيرهم، ليس فقط لأن هؤلاء العلماء لديهم علاقات مع ولاية الأمور والسلطين (سيئين كان ولاية الأمور والسلطين أم جيدين)، ولكن أيضاً لأن لديهم موقفاً شديداً تجاه هذه الحركات.

١- ما تقدم من كلام الرجل يدخل في الموالاتة الصريحة والكبرى للكفر وملة الطاغوت الحاكم ولحزبه ونظامه في (بلاد كذا)....، والذي لا يختلف على كفره وطغيانه اثنان عرفا دين الله تعالى. وعليه يُحمل قوله - تعالى - في عالم بني إسرائيل بلعام الذي انسلخ من آيات الله ومن دينه بعد أن كان أعلم قومه بسبب دعاء دعا به للكفار من بني قومه على المؤمنين الموحدين: ﴿ وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَاتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْعَاوِينَ، وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلَ عَلَيْهِ يَلْهَثُ أَوْ تَتْرُكُهُ يَلْهَثُ ﴾ (الأعراف: ١٧٠-١٧٦). وعليه يُحمل كذلك قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ ﴾ (المائدة: ٥١). فإن قال أنا لم أتخذ اليهود والنصارى أولياء..؟! (...).

٢- لم يكتف (فلان) ..... بعدم تكفيره للكافر كفراً بواحاً والمتمثل في كفر طاغوت....؛ وهذا كفر بذاته مخرج عن الملة .. ولم يكتفي (فلان) ... بأنه سمى الكفر البواح إيماناً .. والكافر الكفر الصراح مؤمناً؛ وهذا كفر بذاته مخرج عن الملة .. بل تعدى ذلك إلى أن رفع الطاغوت الكافر إلى درجة الأولياء الصالحين (...).

٣- جزمه بأن الله - تعالى - سيوفق الكافر الطاغوت (فلان).. وأن الله ناصره ولا بد .. ولن يتخلى عنه .. وهذا عين الكفر والطعن بالله تعالى؛ حيث نسب له سبحانه مالا يليق به وبأسمائه وصفاته .. فجعل من الله - تعالى - نصيراً للمجرمين المكذبين الظالمين .. وهذا عين الكفر البواح!! (...).

٤- (... خنت أمتك .. خنت المسلمين .. خنت دينك .. خنت أهل بلدك ..

وكذبت عليهم، وما صدقتهم .. والله - تعالى - سائلك غداً عن كل هذا!! الآن قد يخاف الناس أن يذكروك بسوء، أو حتى ينصحوك؛ لأن جنود قائدك الفذ يحرسونك؛ وهم رهن أمرك وإشارتك، وأنت عينهم الساهرة ضد شعبك وأهل بلدك .. ولكن الأجيال القادمة لن ترحمك، ولن يذكروك إلا باللعنات والشتائم؛ لأنهم لن يخافوك؛ ولأنه وقتئذٍ لن يكون لطاغوتك الفذ وجنده أثر أو وجود .. وما ذلك ببعيد إن شاء الله.

٥- ما تقدم من كفر بواح على لسان (فلان) ... لا يمكن لأرباب التأويل - بل والتحريف - مهما أوتوا من قوة أو قدرة على التحريف أو التأويل أن يؤولوه إلى ما دون الكفر، أو إلى وصف يخرجهم عن وصف الكفر البواح .. إلا إذا خرجوا في تأويلاتهم وتحريفاتهم عن حدود المفاهيم الشرعية، والدلالات اللغوية المعتبرة ..!!

٦- لا يمكن أن يُعذر (فلان) ... - فيما أظهر ويظهر منه من كفر بواح - بأي مانع من موانع التكفير؛ كالعذر بالجهل، أو التأويل، أو الإكراه، أو غيرها من موانع التكفير المعتبرة ..!! ومهما تكلف له المتكفون وحاولوا أن يجدوا له عذراً إلا ووجدوا مقابل ذلك المواقف والعبارات الصريحة بالكفر التي ترد عليهم تكلفهم وتأويلاتهم التي أرادوا منها إعدار الرجل، وإقالة عثراته ..!! وبالتالي لا موضع هنا مطلقاً لمقولة " ضرورة قيام الحجة قبل تكفير المعين! " إذ إن هذه المقولة موضعها الصحيح عندما يُحمل الكفر على معين وقع في الكفر لمانع شرعي معتبر شرعاً .. وليس هكذا (فلان) ...!

٧- من خلال جميع ما تقدم ذكره فإنه لا بد لنا شرعاً من أن نحكم على الدكتور (فلان) ... بأنه كافر مرتد بعينه .. تُجرى عليه جميع أحكام الردة وتبعاتها في الدنيا والآخرة .. إلى أن يُظهر للأمة براءته من الطاغوت

وجنده، ومن كل ما تلبس به من كفر بواح ثبت عليه بالبينة القاطعة !  
 ولا يمنع من ذلك كون الرجل دكتوراً في الشريعة .. أو اتساع صيته  
 واسمه في العالم الإسلامي .. أو كان له جهود نافعة في أول مراحل الطلب  
 والالتزام .. فكل هذا لا يتشفع له عند مورد الكفر البواح المغلظ .. ولأن  
 العبرة بالخواتيم، وبما يُختم به على المرء هذا الحكم الشرعي الصادر  
 بحق (فلان) ... قد لا يروق لبعض المتعصبة للرجل أو الجهلة بأحكام  
 الشريعة .. فنقول لهم أخرجوا أدلتكم وبرهانكم فيما تتكرونها علينا إن  
 كنتم صادقين .. فنحن - ولله الحمد والمنة والفضل - طلاب حق ودليل،  
 والحق أحب إلينا من أنفسنا وكل ما نملك .. أو كفوا ألسنتكم  
 وشركم وجهالاتكم عنا، فالمورد ليس موردكم، والحكم ليس لي ولا  
 لكم .. وإنما هو لله العلي القدير وحده.<sup>(١)</sup>

ومن أصعب ما يواجه هذا النمط من التفكير هو مقاومة إغراء تبرير  
 العاطفة التي تم التعرف عليها، وبالطبع فقد يحتمل هذا التبرير الخطأ  
 والصواب، وفي كلتا الحالتين يحاول الشخص مقاومة التبرير وتجاهل أهميته.  
 ونظراً لخطورة وأهمية تأثير انفعالات الإنسان واعتقاداته الشخصية على  
 تفكيره أولاً وما يستتبعه ذلك من نتائج سلوكية ثانياً، فقد ظهرت العديد من  
 المدارس والاتجاهات في علم النفس التي وجهت اهتمامها الأولي، في معالجة  
 السلوكيات والأحكام غير المنطقية التي تعيق تكيف الفرد مع محيطه، إلى  
 معالجة اعتقاداته وتفضيلاته الشخصية التي ينطلق منها في انفعالاته وأفكاره  
 وسلوكياته.

(١) عبد المنعم مصطفى حليلة أبو بصير. هذا هو البوطي فاحذروه، فتوى مؤرخة بـ ١٦-١١-١٤٢١هـ، متوفرة على موقع منبر التوحيد والجهاد.

ويعتبر ألبرت أليس<sup>(١)</sup> رائد العلاج السلوكي المعرفي في علم النفس، حيث انطلق في رؤيته من أن نتائج سلوكياتنا وأحكامنا ليست وليدة من الأحداث المحيطة بنا بشكل مباشر، وإنما من خلال تفسيرات الإنسان لهذه المشكلات والأحداث وما تتطوي عليه من اعتبارات شخصية. وبحسب أنموذج أليس فإن اعتقادات الإنسان حيال المواقف والأشخاص هي المسؤولة المباشرة عن أحكامه عليها سواء كانت تلك الأحكام سليمة أم معتلة، وبالتالي فإن هدف العلاج يجب أن يتمحور حول الرسائل الشخصية التي يريها الإنسان نفسه حيال المواقف والأحداث والتي تنجم بالطبع عن اعتقاداته وتفسيراته الشخصية، عوضاً عن الاهتمام بالأحداث والأشخاص في المحيط الخارجي بوصفهم مصدر السلوكيات والانفعالات<sup>(٢)</sup>.

وبذلك فإن نزعة الإنسان أن يكون على صواب دوماً في أحكامه، ومغالاته أحياناً في التأكيد على صوابه كثيراً ما تؤدي لنتائج كارثية، حيث يدفعه إصراره على موقف معين وبدافع إثبات الذات إلى سلسلة من المغالطات في قراراته وأحكامه، حتى يغدو معها التراجع عن حكمه أمر شبه مستحيل

(١) ألبرت أليس (Albert Ellis) ولد في بيتنج بولاية بنسلفانيا بالولايات المتحدة الأمريكية عام ١٩١٣م وحصل على البكالوريوس في عام ١٩٣٤م، وحصل على الماجستير سنة ١٩٤٣م وعلى الدكتوراه في عام ١٩٤٧م من جامعة كولومبيا، وبدأ يمارس في مكتب خاص في مجال الزواج والأسرة والجنس، يعتبر رائد أسلوب العلاج العقلاني الانفعالي، وهو علاج مباشر وتوجيهي يستخدم فنيات معرفية وانفعالية، لمساعدة المريض لتصحيح معتقداته اللاعقلانية وما يصاحبها من خلل انفعالي وسلوكي وتحويلها إلى معتقدات عقلانية يصاحبها ضبط انفعالي وسلوكي. ويجدر التنويه هنا إلى أن البروفيسور مالك البدري يرى أن الراحل الحقيقي لمدرسة العلاج العقلاني الانفعالي هو الإمام أبو زيد البلخي. انظر الوصلة:

<http://dr-nabeel.com/mont/viewtopic.php?f=43&t=1932>

(٢) انظر:

Timothy J. Trull. Clinical Psychology, Wadsworth Publisher. 7th ed., USA, 2005, p.391-392

بالنسبة له؛ لأنه في هذه الحالة يعتبر أن خطأ تقديره في إصدار ذلك الحكم إنما هو خطأ أو عيب في صلب ذاته شخصيته، والإقرار به يعني الإقرار بالعيب أو القصور الذي سببه مما يجعله يخسر تلك المكانة التي يتوهم أنه وصل إليها في محيطه. ويمكن هنا ملاحظة أن معظم أعضاء الحركات التي تتبنى العنف والتكفير هم من الشباب والمراهقين، وهذا النوع من التفكير شائع لدى هذه الفئة العمرية من الناس.

وبذلك يصبح هذا الخلط بين الذات وبين أفعالها وأحكامها سبباً في دمار هذا الشخص، بدلاً من أن يقتصر الأمر على مجرد مراجعة النفس وإعادة التفكير في خطوات التوصل للحكم. وللأسف كثيراً ما يقع التربويون في هذا الخطأ عندما يخلطون بين سلوك المتعلم وأحكامه من جهة، وبين ذاته وشخصيته بحد ذاتها من جهة أخرى، وبدلاً من أن يأتي نقدهم لمدى منطقية السلوك أو الحكم والخطوات التي أدت إليه، يوجهون نقداً مباشرة ولاذعاً لشخصية المتعلم فيتحول نقدهم لأداة لهدم النفوس وتدميرها بدلاً من أن يكون وسيلة لإصلاح التفكير وتقويم آليات التوصل إلى حل المشكلات واتخاذ القرارات.



## الخاتمة

الحكم على صحة الحكم بالتكفير أو عدمه هو حكم بالضرورة على صحة التفكير أو عدمه، ولهذا السبب فإن النظر إلى التفكير هو النظر في جوهر مشكلة الغلو في التكفير وتفشي مشكلة التكفير خارج الإطار الشرعي.

### ١- النتائج:

■ يعتبر التفكير المورد البشري الأساسي، وعلى الرغم من عدم اقتناع الكثيرين من الناس عامة والمتقنين على وجه الخصوص بأهمية تنمية هذه المهارة والملكة التي خصنا الله - تعالى - بها عن سائر المخلوقات، ذلك أن أخطاء التفكير، التي سبق ذكرها وغيرها من الأخطاء الأخرى، تنجم من طريق معالجة العقل للمعلومات، فهي ليست ناجمة عن غباء أو إهمال، أو من كونها قائمة على سوء نية شخص ما أو رغبته المسبقة في إصدار الأحكام والقرارات المؤذية والمدمرة لمن حوله، وإنما تأتي هذه الأخطاء - غالباً - كنتيجة لعدم الانتباه إلى أهمية هذه الأخطاء وخطورة تأثيرها على أحكامنا وقراراتنا، وكذلك قلة الممارسة والتدريب وضعف مهارات معالجة المعلومات والموازنة بين العام والخاص، فالتفكير لا يعني الذكاء، والذكاء وحده لا يكفل النجاح، والممارسة وحدها لا تكفي، وخبرات الشخص وتجاربه قد لا تسعفه.

■ كثيراً ما يكون الخلط بين المعلومات والتفكير، الأمر الذي يسهم في توسيع ظاهرة التكفير وتكاثرها، فالمعلومات هامة ويسهل تعليمها واختبارها، إلا أن التفكير ليس بديلاً عن المعلومات، ولا هي بديلة عنه، بل هما متكاملان متلازمان، فقد نستطيع في بعض المجالات أن نحصل على معلومات كاملة حيث يصبح العمل شيئاً سهلاً روتينياً، ولو حصلت

على معلومات وافية عن أي عمل فإننا نحتاج إلى التفكير لنستكمل دور المعلومات الناقصة، كما أننا نحتاج عادة إلى التفكير لنغربل الكم الهائل من المعلومات لنستطيع الاختيار واتخاذ القرار، وعندما نتعامل مع المستقبل فإننا أيضاً نحتاج إلى التفكير، لأنه من المستحيل أن تتوافر لنا معلومات كاملة عن المستقبل، ولهذا فإن المعلومات وحدها لا تكفي.

- كثيراً ما تقع أخطاء التفكير دون وعي أو قصد واضح من أصحابها وبالتالي تأتي نتائج هذه الأخطاء دون سوء نية لديهم كذلك الأمر في موضوع التكفير، لذلك من واجبنا الانتباه لهذه النقطة قبل اتخاذ أي حكم أو قرار بشأن أولئك الأشخاص.
- تؤدي العوامل الاجتماعية دوراً مهماً في ترسيخ هذه الأخطاء أو التقليل منها، خاصة في بعض المجتمعات التي تضع مكانة الشخص بمقدار اطلاعه على جميع العلوم دون الاهتمام بموضوع التخصص الذي أصبح سمة العصر، مما قد يؤدي إلى وقوع الشخص في هذه الأخطاء وخاصة التعميم والحكم المناوئ نتيجة افتقاره للمعرفة العميقة من جهة ولرغبته في الحظوة والمكانة الاجتماعية من جهة أخرى.

## ٢- توصيات:

- اشتملت فريضة التفكير في القرآن العقل الإنساني بكل ما اشتمل عليه من وظائف وخصائص، حيث لم ينحصر الخطاب في العقل الوازع ولا في العقل المدرك، ولا في العقل الذي يناط به التأمل الصادق والحكم الصحيح، بل يعم الخطاب في الآيات القرآنية كل ما يتسع له الذهن الإنساني من خاصية أو وظيفة<sup>(١)</sup>. ومع ذلك نجد أن التعليم يتمركز فقط

(١) انظر: عباس محمود العقاد، التفكير فريضة إسلامية، القاهرة، نهضة مصر للطباعة، (د.ت)، ص.٧.

حول أدنى مستويات التفكير حسب هرم (بلوم) معرفة؛ أي مستوى الحفظ والاستذكار، في حين لا تكاد تجد اهتماماً وعناية بمستويات التفكير العليا كالتحليل والتركيب والتقويم والتفكير الإبداعي، الذي نعالج به المعلومات ونطلق على أساس هذه المعالجة أحكامنا وقراراتنا. لذلك لا بدّ من الاهتمام بتعليم التفكير ضمن مؤسسات تربوية أو علمية متخصصة تمثل أفضل طريقة لتجنب النتائج الكارثية في الأحكام. فإنه من الضروري علينا كمسلمين أن نسعى لتعلم مهارات التفكير وعملياته وإتقانها، لتبقى صالحة متجددة من حيث فائدتها واستخداماتها في معالجة المعلومات والتعامل بفعالية مع أي نوع من المتغيرات التي يأتي بها المستقبل، وبهذا تأتي نتائج التفكير منطقية ومتحرية لمعظم أوجه الصواب والدقة.

■ الحد من ظاهرة الفتوى لغير المؤهلين أمر ضروري للحد من انتشار هذه الظاهرة أيضاً؛ لأن هذه الظاهرة ينبنى عليه آثار اجتماعية خطيرة تتضمن مصائر حياة أناس كثيرين.

■ كما أن معرفة أخطاء وعشرات التفكير التي يمكن أن ننزلق إليها دون وعي معنا، يمكن أن يساعدنا كثيراً في مراجعة أحكامنا وقراراتنا كما أحكام الآخرين قبل أن نثق بها ونأخذها بوصفها دليلاً حاسماً حيال الموضوع الذي تمركزت حوله عملية التفكير برمتها، وبذلك نكون قد حافظنا على الأمانة والملكة التي وهبنا الله إياها لإعمار الأرض ونشر دين الله الحنيف على أساس التسامح والتوسط.

■ ظاهرة التكفير التي ترجع بشكل أساسي إلى أخطاء في التفكير، تجد أفضل حلولها في العلاج السلوكي المعرفي المعروف اختصاراً في (CBT) وهو أحد طرق العلاج النفسي التي تشدد على أهمية دور التفكير في

التأثير على مشاعرنا وسلوكياتنا، والعلاج المعرفي السلوكي ليس تقنيه علاجية واحدة بعينها، بل مصطلح "العلاج المعرفي السلوكي" مصطلح عام نطلقه على كل أشكال العلاج التي تنطلق من نفس القاعدة، فهناك العديد من أشكال العلاج المعرفي السلوكي مثل العلاج السلوكي الانفعالي العقلاني، والعلاج المعرفي، والعلاج المعرفي الدياليكتي وغيرها. وتشترك جميع أشكال العلاج المعرفي السلوكي فيما بينها في الارتكاز على نموذج معرفي للاستجابات الانفعالية، و"أن أفكارنا هي السبب وراء مشاعرنا وسلوكياتنا وليس الأشياء السطحية أو الخارجية كالناس أو المواقف أو الأحداث"، ونفع هذه الفكرة هو أننا نستطيع أن نغير طريقة تفكيرنا لنشعر ونتصرف بشكل أفضل حتى وإن لم تتغير المواقف.<sup>(1)</sup>

■ أخيراً، إن الدور الذي تقوم به هيئة المناصحة هو جزء مهم من معالجة هذه الظاهرة، ولكن جهود علماء الدين والفقهاء المساهمين في هذا المشروع يجب أن تكملها جهود علماء النفس الذين لديهم معرفة شرعية كافية تساعدهم في الحد الأدنى على المشاركة في عملية المناصحة ومساعدة الشباب المنضمين إلى برنامج المناصحة لتحسين مستوى أدائهم في عملية التفكير وتجنب أخطائه الأساسية، وبذلك سوف يسهم كل من العلم الشرعي والعلاج النفسي في الحد من هذه الظاهرة.

(1) للمزيد حول العلاج المعرفي السلوكي انظر:

Frank W. Bond & Windy Dryden (Editors), Handbook of Brief Cognitive Behaviour Therapy, JOHN WILEY & SONS, England, 2002

## المصادر والمراجع

### أ. الكتب والبحوث:

- إبراهيم علي، التفكير الناقد بين النظرية والتطبيق، عمان، دار الشروق، ٢٠٠٩م.
- أبو جعفر الطحاوي. شرح مشكل الآثار، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٩٩٤م.
- أبي محمد عاصم المقدسي. الرسالة الثلاثينية في التحذير من الغلو في التكفير، موقع منبر التوحيد والجهاد على الانترنت. د.ط، ١٩٩٩م.
- أحمد ماهر، السلوك التنظيمي: مدخل بناء المهارات، بيروت، الدار الجامعية، د.ط، د.ت، ٢٠٠٧م.
- إدوارد ديونو، التفكير العلمي، ترجمة خليل الجيوسي، أبو ظبي، منشورات المجمع الثقافى، ١٩٩٧م.
- إدوارد ديونو، قبعات التفكير الست، ترجمة خليل الجيوسي، مراجعة: عبد الله البيلى، أبو ظبي، المجمع الثقافى، ٢٠٠١م.
- الإمام أبو حامد الغزالي، إحياء علوم الدين، الهيئة العامة لمكتبة الاسكندرية، الاسكندرية، دن، د.ت.
- الإمام أبو عبد الله البخاري، الجامع المسند الصحيح، تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة، الرياض، ط١، ٢٠٠٢م.
- الإمام أبي عيسى الترمذي. الجامع الكبير، تحقيق بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط١، ١٩٩٦م.
- خالد بن عبد الله الشمراني. التعبير عن الرأي: ضوابطه ومجالاته في الشريعة الإسلامية، مركز التأصيل للدراسات والبحوث، جدة، ط١، ٢٠٠٩م.
- سارة بنت عبد المحسن بن جلوي آل سعود، السطحية وغياب الهدف، بحث منشور.
- عباس محمود العقاد، التفكير فريضة إسلامية، القاهرة، نهضة مصر للطباعة، د.ت.
- عبد الرحمن العيسوي، موسوعة ميادين علم النفس بين الخرافة والإبداع، دار الرتب الجامعية، ج٢، ٢٠٠٤م.

- عبد الكريم بكار، خطوة نحو التفكير القويم: ثلاثون ملمحاً في أخطاء التفكير وعيوبه، عمان، دار الإعلام، ط٤، ٢٠٠٩م.
- عبد المحسن المبدل، المكونات الإيجابية للبيئة الصفية وعلاقتها بمهارات التفكير الناقد، رسالة دكتوراه، قسم علم النفس، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، كلية العلوم الاجتماعية، ١٤٣٠-١٤٣١هـ.
- عبد المسيح خلف، اضطرابات التفكير، استشاري الأمراض النفسية في جامعة دمشق. مشفى البشر للأمراض النفسية.
- مالك البدري، التفكير من المشاهدة إلى الشهود، القاهرة، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط١، ١٩٩٥م.
- محمد عوض الترتوري، النمو المعرفي عند جان بياجيه، ٢٠٠٣م.
- محمد ناصر الدين الألباني. فتنة التكفير، إعداد: أبو أنس علي بن حسين أبو لوز، دار الوطن، الرياض، ط١، ١٩٩٧م.
- ناصر عبد الله بن سعد الأحمد الحربي، علاقة الجمود الفكري بأنماط التعلم والتفكير لدى طلاب وطالبات المرحلة الثانوية بالمدينة المنورة، رسالة ماجستير، كلية التربية جامعة أم القرى، ١٤٢٣-١٤٢٤هـ، نقلاً عن: إبراهيم وسليمان ١٩٩٢م.
- يوسف القرضاوي. ظاهرة الغلو في التكفير، مكتبة وهبة، القاهرة، ط٣، ١٩٩٠م.
- Frank W. Bond & Windy Dryden (Editors), Handbook of Brief Cognitive Behaviour Therapy, JOHN WILEY & SONS, England, 2002
- Timothy J. Trull. Clinical Psychology, Wadsworth Publisher. 7<sup>th</sup> edn., USA, 2005, p.391-392

#### ب. شبكة المعلومات:

- <http://dr-nabeel.com>
- <http://www.horoof.com>
- <http://www.islamtoday.net>
- <http://www.lahaonline.com>
- <http://www.psychology.org.au>